

ومن مثل هذه المواقف العظيمة نتبين أن عقيدة الإسلام وشعائره وعباداته قد حوّلت العرب من أناس تمتلئ عقولهم بالترفة العنصرية والتمييز بين الناس على أسس خلقية وغير منطقية إلى جماعة من الناس تسودهم روح المحبة والإخاء، حتى أنهم استساغوا أن يعتلى بلال الحبشي ذو البشرة السوداء ظهر الكعبة في فتح مكة؛ ليؤذن من فوقها. ويؤخذ من صورة بلال رضى الله عنه وهو يرفع كلمة الحق (الأذان) من فوق الكعبة أن الإسلام جاء ليُعلَى من قيمة المساواة والكرامة الإنسانية.

\* \* \*

### ثانياً: المساواة في الإنسانية بين الأحرار والعبيد:

جاء الإسلام إلى العالم وكان نظام الرّق قائماً منتشراً في كل بقاع الأرض، وهو نظام يعنى أن يستعبد إنسان إنساناً آخر، فيصير الرجل أو المرأة الذى وقع عليه أو عليها الرق كالشئ الذى يجوز بيعه، وشراؤه، وتوريثه، وقد وصل الحال عند الرومان أنهم كانوا يدرّبون أبناءهم على الرمي بالسهام، ويجعلون العبيد هم الهدف، فعلم الإسلام على غلق المنافذ التى تؤدى إلى استرقاق الأحرار وجعلهم عبيداً تحت إمرة أسيادهم، وهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً لأنفسهم، واتخذ لذلك صوراً للتضييق على نظام الرّق حتى أغلقت أبوابه تماماً، وتلك الصور يتمثل أهمها فيما يلى:

#### ١- الرّق ظاهرة اجتماعية مؤقتة:

لقد أقر الإسلام وجود الرق كظاهرة اجتماعية وسياسية قائمة بالفعل

وموجودة فى عصر نزول الوحى ، ولكنه ضِمْنَا لم يعترف به ظاهرةً طبيعيةً مستمرة ودائمة ، ويؤخذ ذلك بوضوح من عدم قصر الإسلام وسائل تكفير المسلم عن ذنبه فى عتق الرقيق وتحريره فحسب ، وإنما أوجد معه طرقاً أخرى كأنها بدائل له ، كالصوم وإطعام المساكين وتقديم الهدى ، وذلك إيذان بأنه سيأتى زمانٌ لا وجودَ للرق فيه ، وقد أتى والحمد لله رب العالمين ؛ حيث انتهى نظام الرِّق من العالم الإسلامى كله منذ ١٥٣ سنة مضت .

## ٢- تشريعات تعمل على انتهاء الرق وزواله :

مما يؤكد تشوف الإسلام إلى حرية الإنسان وتخليصه من أى مظهر من مظاهر العبودية إلا لخالقه سبحانه وتعالى أنه وضع تشريعات عدة تفتح الأبواب أمام العبيد ، لينالوا كامل حريتهم أفواجاً ، وتمثل تلك التشريعات فيما يلى :

(أ) جعل الشرع الشريف عتق الرقاب وتحريرها من أسر العبودية صنفاً من الأصناف الواجب دفع الزكاة لهم ، وفى تقرير ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَى فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة].

(ب) جعل الشرع الشريف عتق الرقاب وتحريرها نوعاً من الأنواع التى يُكفَّرُ بها المسلم عما ارتكبه من الذنوب التى تجب فيها الكفارة ، وتلك الذنوب متنوعة ، وبالتالى تتنوع أوجه عتق الرقاب ، مما يودى إلى

تكثر أعداد الرقاب المعتقة بسبب الكفارات، وتتمثل تلك الكفارات في الآتي:

١- كفارة القتل الخطأ، وهي مقتصرة على الرقبة المؤمنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء].

٢ - كفارة الظهار، ولم يقيد فيها النص الرقبة بالإيمان بل جعلها مطلقة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُوتَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة المجادلة].

٣ - كفارة الحنث في اليمين، وهي هنا رقبة مطلقة أيضا قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ ۖ وَإِطْعَامٌ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المائدة].

(ج) حرّم الإسلام على أتباعه التعامل بالربا مع الآخرين، وقد كان

الربا من أكبر المصادر التي توقع الناس في أسر العبودية حينما يعجزون عن سداد ديونهم وفوائدها.

(د) سدّ الإسلام كل المسارب التي توقع الإنسان في الرق، فلم يعد إلا طريق واحد وهو الحرب المشروعة.

(هـ) شرع الإسلام المنّ على الأسير أى تركه بدون فداء ولا استرقاق، وشرع الفداء له من ذويه بالمال أو البدل مع الأسير المسلم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَأَمَّا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا﴾ [سورة محمد: الآية: ٤].

(و) حرّم الإسلام الإغارة القبلية وقطع الطرق على الناس، وقد كان قطع الطرق على الناس وسرقتهم من موارد الرق، فجعل الشرع على قطاع الطرق حدا من أشد الحدود وهو حد الحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

(ز) خصص الإسلام سهماً في أموال الزكاة لسداد ديون الغارمين، والغارم من صوره التي يصدق عليها العبد الذي كاتب سيده على العتق على أن يدفع له ثمنه مؤجلاً.

(ح) كنى القرآن عن الرق بالرقبة مراعاة لمشاعر العبد الإنسانية، كما أنه يلاحظ أنه لم يقيد بها بالإيمان سوى في كفارة القتل الخطأ، مما يعنى أن تخليص الإنسان من الرق والعبودية مقصد شرعى دون نظر إلى المعتقد.

(ط) جعل الإسلام الأمة التي تلد من سيدها حرة بعد موته على أنها أم ولده.

(ي) شرع الإسلام مكاتبه العبيد وحض عليها. وهي عبارة عن عتق المالك لعبده على أن يؤدي العبد ثمن نفسه مؤجلاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكِنَبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [سورة النور: الآية: ٣٣].

(ك) تكاثرت نصوص السنة في بيان فضل عتق الرقيق حتى أصبح يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو، ومن تلك الأحاديث ما رواه عُمَيْرُ بْنُ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً كَانَ فِدَاؤُهُ مِّنَ النَّارِ مَكَانَ كُلِّ عَضْوٍ عَضْوًا»<sup>(١)</sup>.

### ٣- المحافظة على كرامة العبد ومعاملته بالرحمة والمساواة:

حث الإسلام أتباعه على المحافظة على كرامة الإنسان عامة والعبيد خاصة ومعاملته بالرحمة والالطف، وذلك في مواقف عديدة، منها:

(أ) قوله ﷺ: «لَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ أَطْعَمَ رَبِّكَ وَصَّى رَبِّكَ اسْقَ رَبِّكَ وَلْيَقْلُ سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمْتِي، وَلْيَقْلُ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»<sup>(٢)</sup>.

(ب) وما روى عن أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا

(١) السنن الكبرى للنسائي (كتاب العتق - فضل العتق ٧/٥)، رقم: (٤٨٦٢).

(٢) صحيح البخاري (كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي)

لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». فَالْتَقْتُ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ خُرٌّ لِرُؤُوسِ النَّاسِ. فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لِلْفَحْتِكَ النَّارُ». أَوْ «لَسْتُكَ النَّارُ»<sup>(١)</sup>.

(ج) وَمَا رواه أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَدَّبَ الرَّجُلُ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا آمَنَ بِعَيْسَى ثُمَّ آمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّقَى رَبَّهُ وَأَطَاعَ مَوْلِيَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ»<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإن المسلم يستحق في الآخرة أجرًا مضاعفًا إن أحسن إلى أمته واحترم إنسانيتها وراعى حقها في التأديب والتعليم ثم أعطها الحرية وتزوجها.

وكان لدعوة النبي ﷺ أصحابه أن يُعَلِّمُوا مَوَالِيَهُمْ ويحسنوا تأديبهم أثر عظيم في حياة العلوم الإسلامية والثقافة العربية في مهدها الأول، فقد تفوق الموالى في ريادة علوم عديدة، ولم يجد المسلمون من العرب وغيرهم أية غضاضة في أن يتلقوا الفقه والتفسير والحديث من الموالى؛ وما ذلك إلا لرسوخ الشعور بالأخوة والمساواة بينهم، وعلمهم أن ليس من معيار يكرم الإنسان ويشرفه إلا التقوى.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ خصَّ الأُمَّةَ بِذِكْرِ تَأْدِيبِهَا وَتَعْلِيمِهَا؛ لِأَنَّ

(١) صحيح مسلم (كتاب الأيمان - باب صحبة المالك وكفارة من لطم عبده) ٩٢/٥، رقم

(٤٣٩٨).

(٢) صحيح البخارى (كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله وذكر فى الكتاب مريم إذ

انتبذت من أهلها) ١٦٨/٤، رقم: (٣٤٤٦).

المرأة في هذه العصور كانت تلقى إهمالا، خاصة في مسألة الحق في التعلم.

(د) وَلَقِيَ الْمَعْرُورُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبْدَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَلَقَتْ انْتِبَاهَهُ التَّشَابَهُ التَّامَّ بَيْنَ مَلْبَسِ أَبِي ذَرٍّ وَمَلْبَسِ غُلَامِهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ، إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»<sup>(١)</sup>.  
ومعنى «خولكم» أى: خدَمكم يُصلِحون شئونكم، وفيه نبذ لكل قول أو فعل يفهم منه عدم احترام كرامة الإنسان مهما دنّت منزلته .

(هـ) وما قاله الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ بعدة سنوات، وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخلت فيها شعوب وأجناس شتى: «لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا لَأَسْتَخْلَفْتُهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي قُلْتُ: سَمِعْتُ نَبِيَّكَ ﷺ يَقُولُ: «هُوَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وَلَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُدَيْقَةَ حَيًّا لَأَسْتَخْلَفْتُهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي، قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ نَبِيَّكَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَتْوَةً بَيْنَ يَدَى الْعُلَمَاءِ»<sup>(٢)</sup>،  
فإن عمر لم ير غضاضة أن يستخلف على المسلمين سالما وهو من الموالي،

(١) صحيح البخارى (كتاب الإيمان - باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك) ١٥/١، رقم: (٣٠).

(٢) - تاريخ دمشق لابن عساکر (٤٠٤/٥٨)، والرّتوة: الخَطوة وشَرَفٌ من الأرضِ وسُوَيْعةٌ من الرّمانِ والدّعوة والقطرةُ ورميّةٌ بسهمٍ أو نحو ميلٍ أو مدى البصرِ.

ولم يبد له أن المسلمين قد يرفضون مثل هذا، وأرجع حيثية اختياره إلى علم سالم وشهادة رسول الله ﷺ له بهذا العلم.

\* \* \*

### ثالثاً: المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام:

وينتظم الكلام تحت هذا العنوان في العناصر التالية:

#### ١- واقع المرأة في البيئة العربية قبل الإسلام:

إن معرفة أحوال النساء في البيئة العربية قبل الإسلام وإدراك المكانة المتدنية التي كانت تعيش فيها والنظرة الجاهلية التي كانت تعامل بها، لهو أمر يكشف بجلاء عن التحول الذي صنعه رسالة الإسلام في تلك الأرض وفي هؤلاء العرب، فقد غيّرت مفهومهم وتصورهم للمرأة وعدّلت كثيراً من سلوكياتهم نحوها، وأشعرتها بذاتها وأفسحت لها مجال المشاركة في نصرة الرسالة الجديدة بكل ما تستطيع.

وعندما ننظر للمرأة في البيئة البدوية العربية نجدها مكروهة من الأبوين، حيث كانوا يستاءون لولادتها فإما يمسكونها على مضمض وشعور بالخيبة والهوان والخوف من العار أو يدسونها في التراب، ويصف الله تعالى في كتابه الكريم حالهم في ذلك، فيقول سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾

[سورة النحل: الآية: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ